الملل والنحل للشهرستانى

بقلم
الدكتور احمد فؤاد الأهوانى

— ١ —

الدين ظاهرة مصاحبة لسائر المجتمعات البشرية منذ أقدم العصور حتى اليوم . والدين إيمان بكائن مقدس يتقدم له الشخص بالعبادة ، فالقداسة والتعبد صفتان جوهريتان تميزان كل دين . ولكن الناس يختلفون بحكم طبائعهم وتقاليدهم وبيئاتهم فى مظاهر التدين ، كما يختلفون فى اعتقاداتهم الباطنة . وقد وجد هذا الاختلاف من قديم الزمان حتى الوقت الحاضر .

ودراسة العقائد والمظاهر الدينية تكشف عن طبائع الأمم ، ما دام الدين له هذا الأثر القوى فى السلوك . وتنقسم هذه الدراسة إلى نوعين أساسيين ، دراسة تعصب وهوى وتحيز ، ودراسة تقرير وإنصاف . ومعظم الباحثين فى الأديان يتجهون الوجهة الأولى ، يقفون موقف الدفاع عن عقيدتهم ينصرونها حقة كانت أم باطلة ، ويتعصبون لها ، ويذمون فى الوقت نفسه عقائد مخالفيهم . وليس هذا الموقف علمياً ، لأن الروح العلمية تتطلب التجرد من الهوى والنظرة الموضوعية ، حتى يتيسر الحكم على الآراء حكماً عادلا صحيحاً .

والشهرستانى ، مؤرخ الأديان ، من هذا الصنف الثانى ؛ ولعله أول مؤرخ للأديان هذا المنهج العلمى السليم ، وبذلك سبق فلاسفة المناهج فى أوربا بقرون عدة وعلى رأسهم ديكارت الذى اشترط فى أول قواعد المنهج أن يتجنب الباحث الانحياز والهوى . وفى ذلك يقول الشهرستانى فى مقدمة كتابه ما نصه : « وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم ، من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله . وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية فى مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل » (ص ٢٣)

سبقه إلى الكتابة عن الفرق مؤرخون ألفوا عن « المقالات » ، ولكن كان ينقصهم هذا الشرط المنهجى كما كان ينقصهم الاستيعاب والشمول . ذلك أن معظم كتاب الفرق والمقالات انصرفوا إلى تفصيل القول عن الفرق الإسلامية ، كالاسفرابينى فى « التبصير فى الدين » والبغدادى فى « الفرق بين الفرق » . ولم يشذ عنهم سوى ابن حزم فى الفصل فكتابه مستفيض ، غير أنه يقف من المخالفين موقف المهاجم ، فهو صاحب عصبية وهوى . وقد عاش أبو محمد بن حزم قبل الشهرستانى بقرن تقريباً إذ ولد عام ٣٨٤ هـ ، وتوفى عام ٤٥٦ هـ .

— ٢ —

والشهرستانى هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ابن أحمد (٤٧٩ — ٥٤٨ هـ — ١٠٨٦ — ١١٥٣ م) ولد بشهرستان بآخر حدود خراسان ، وإليها نسب ، وفيها توفى ودفن . تنقل فى بلدان فارس فرحل إلى خوارزم ونيسابور ، وحج إلى مكة ، واستقر ببغداد ثلاث سنين ، حيث درس بالمدرسة النظامية . تعلم الفقه الشافعى على أحمد الخوافى الذى كان أنظر أهل زمانه وأعرفهم بطريق الجدل فى الفقه . وأخذ أصول الدين على أبى القاسم الأنصارى . وسمع الحديث على أبى الحسن المدائنى . قيل إنه يروى بالإسناد المتصل إلى النظام المعتزلى بعض مرويات ، وكان الشهرستانى كثير الحفظ . طبع له كتابان أحدهما « الملل والنحل » ظهرت طبعته الأولى فى لندن ١٨٤٦ قام بها المستشرق كيرتن ، وطبع بعد ذلك بالقاهرة عدة مرات وعدة طبعات ، آخرها طبعة محمد بدران[١] (فى جزأين ١٩٥٦ ، الناشر مكتبة الأنجلو). والكتاب الثانى هو « نهاية الأقدام فى علم الكلام » توفر على طبعه سنة ١٩٣٤ والتقديم له والتعليق عليه المستشرق الفرد جيوم . وبقى له من المخطوطات كتاب « مصارعة الفلاسفة » ، وهو موجود ضمن كتاب « مصارع المصارع » الذى ألفه الطوسى للرد عليه ، وهذا الكتاب شبيه بتهافت الفلاسفة للغزالى ، وتهافت التهافت لابن رشد . وهكذا نرى أن هـــذه الكتب الثلاثة يكمل بعضها بعضاً ، فالملل يعرض تاريخ الأديان والآراء بوجه عام ؛ ونهاية الأقدام يقرر علم الكلام عند المسلمين بحسب ما انتهى إليه فى القرن السادس الهجرى ، فيبتدئ باثبات حدوث العالم وأن محدث العالم هو الله ، ثم يتكلم عن وحدانية الله وصفاته، وفى التحسين والتقبيح وأفعال العباد ، وفى النبوات . أما المصارعة فانه كتاب يدحض آراء الفلاسفة وبخاصة فى قدم العالم ، بحسب ما جاء عند الشيخ الرئيس ابن سينـــا .

— ٣ —

وأشهر الثلاثة « الملل والنحل » ، **فهو مرجع** لا غنى عنه لكل من يشتغل بتاريخ المذاهب والأديان ، وقد ترجم لأهميته إلى بعض اللغات الأجنبية . رجع فيه صاحبه إلى مصادر تعد مفقودة فى الوقت الحاضر ، لخص ما جاء فيها ، ولم يذكر أسماء مؤلفيها . صرح بذلك فى مطلع الكتاب فقال : « فلما وفقنى الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العالم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أوانسها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك فى مختصر يحوى جميع ما تدين به المتدينون، وانتحله المنتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصاراً لمن اعتبر » (ص ١٩) .

ولكن هذا المختصر طال حتى زاد عن خمسمائة صفحة ، فضلا عن خمس مقدمات تمهيدية ، وهى :

١ — فى بيان أقسام أهل العالم جملة .

٢ — فى تعيين قانون يبنى عليه تعديد الفرق الإسلامية .

٣ — فى بيان أول شبهة وقعت فى الخليقة ، ومن مَصْدرها ، ومن مُظْهِرها .

٤ — فى بيان أول شبهة وقعت فى الملة الإسلامية .

٥ — فى بيان السبب الذى أوجب ترتيب هذا الكتاب على طريق الحساب .

كان القدماء يقسمون سكان العالم بحسب الأقاليم السبعة ، ولكل إقليم طبعه الذى ينعكس على الألوان والألسن . ومنهم من قسمهم بحسب الأقطار الأربعة ، أو بحسب الأمم الأربع وهى العرب والعجم والروم

(١) الطبعة الأولى التى قام الأستاذ محمد فتح الله بدران نشرت بمطبعة الأزهر ١٩٤٧ ، وهى مراجعة على مخطوطات عدة ، أما الطبعة الثانية ، وهى التى سنرجع إليها ، فقد جردها من اختلافات النسخ .

والهند ، أو بحسب الآراء والمذاهب . وهذا ما يذهب إليه الشهرستانى .

وهو تقسيم له ما يبرره ، لأن العالم الإسلامى كان ممتداً من الصين فى أقصى الشرق إلى الأندلس فى أقصى الغرب ، وكثيراً ما كانت بعض الدول الإسلامية تشمل أصنافاً من أرباب الديانات والنحل . يقسم الشهرستانى الناس قسمين (١) أرباب الديانات والملل (٢) وأهل الأهواء والنحل . وهى قسمة يعتبرهما المؤلف أنها تقابل التضاد ، يريد أن القسم الأول هم أتباع الديانات المنزلة ممن لهم كتاب أو شبهة كتاب والثانى من ليس لهم دين منزل وشريعة سماوية . ويدخل فى القسم الأول المجوس ، واليهود ، والنصارى ، والمسلمون . وفى القسم الثانى الفلاسفة ، والدهرية ، والصائبة ، وعبدة الكواكب والأوثان ، والبراهمة .

وعنوان الكتاب « الملل والنحل »اختصار لما يشتمل عليه هذين القسمين . والملة من الدين هى مجموعة الناس الذين يؤمنون بهذا الدين ويقومون بتأدية شعائره . إنهم المتبعون للدين ، والذين يكونون فى الاصطلاح المسيحى « الكنيسة » . والنحلة من الانتحال ، والأتباع ، وفى اصطلاح الشهرستانى أنها تختص بالآراء والأهواء .

أما الفرق الإسلامية فهى مقسمة رباعياً إلى الصفات والتوحيد ، والقدر والعدل ، والوعد والوعيد ، والسمع والعقل والنبوة والإمامة . وتحت كل قسم أصناف من الفرق . ولذلك كانت الفرق الإسلامية الكبرى هى : القدرية ، والصفانية ، والخوارج ، والشيعة :

والمقدمة الثالثة هى أول شبهة وقعت فى الخليقة ، وهى شبهة إبليس ، واستبداده بالرأى فى مقابلة النص ، واختياره الهوى فى معارضة الأمر ، واستكباره على آدم الذى خلق من طين . وجميع شبهات الخلق فى الوقت الحاضر نابعة من جدل إبليس ، إذ قال إن الله : « خلقنى ، وكلفنى ، وإذ لم أطع لعننى وطردنى ، وإذ أردت دخول الجنة مكننى وطرقنى ، وإذ عملت عملى أخرجنى ثم سلطنى على بنى آدم . فلم إذ استمهلته أمهلنى ، وما الحكمة فى ذلك بعد أن لو أهلكنى فى الحال استراح آدم والخلق منى ، وما بقى شر ما فى العالم ؟ » (ص ٢٥) . فابليس لما حكم العقل على من لا يحكم عليه العقل وهو الله تعالى ، لزمه أن يجرى حكم الخالق فى الخلق ، أو حكم الخلق فى الخالق . والأول غلو ، والثانى تقصير .

والمقدمة الرابعة فى أول شبهة وقعت فى الملة الإسلامية ، وهناك ألوان من التنازع ظهرت بين المسلمين بعد موت النبى ، ولكنها لا تعد اختلافاً فى الأصول ، مثل الاختلاف فى أثناء مرضه وتوصيته ، وفى موته وقول من قال إنه رفع كما رفع عيسى ، وفى موضع دفنه ، وفى الإمامة ، وفى الميراث ، وفى قتال مانعى الزكاة ، إلى آخر هذه الاختلافات التى تعد فى الفروع لا فى الأصول . أما التنازع فى أصول الدين فينشعب إلى بابين كبيرين : الإمامة أهى بالاختيار أم بالنص والتعيين ، ثم الاختلاف فى حرية العبد وقدرته منذ معبد الجهنى وغيلان الدمشقى ، حتى جاء واصل ابن عطاء فنسج على منوالها :

— ٤ —

وليس الشهرستانى مجرد ناقل عن القدماء فقط ، ولكنه صاحب نظر ورأى ، ولا غرو فانه هو نفسه متكلم أصولى ، وقد نسبه بعض مؤرخى الإسلام إلى الحكماء والفلاسفة . وقد خرج من دراسته لشتى الأديان والمذاهب الفلسفية بتكوين رأى خاص عن ماهية الدين ما هو ، والملة ما هى ، ومعنى الإسلام والحنيفية وغير ذلك من المفاهيم الأساسية فى تاريخ الأديان . فالدين عنده هو إما الطاعة والانقياد ، وإما الجزاء ، وإما الحساب ، فالمتدين هو : « المسلم المطيع

المقر بالجزاء والحساب » (ص ٤٤) . يريد أن يقول إن الدين السماوى على تغير أسمائه واحد هو الإسلام ، مصداقاً لما جاء فى القرآن : « ورضيت لكم الإسلام ديناً » . وليس هذا التعريف هو الجارى فى الوقت الحاضر بين علماء الغرب ، لأنه يتطلب عنصرين لا غنى عنهما هما التقديس والعبادة ، كما ذكرنا فى ابتداء هذه المقالة . هذا فضلا عن أنه يقف فى معنى الإسلام عند الاستسلام والانقياد ، مع أن ثمة مفهوماً للإسلام أعمق وأكثر أصالة هو الاتجاه إلى الله ، وإسلام الوجه لله ، وعندئذ يهتدى المرء بنوره ، ويتحول عن طريق الشر والبغى والعدوان إلى طريق الخير والعدل والإحسان .

ويبدو أن هذا التفسير الأخير لم يكن خافياً عن عينيه ولكنه تفسير أليق بالسلوك الفردى منه بالسلوك الجماعى والدين فى نظر الشهرستانى اجتماعى قبل كل شئ ، إنه « الملة » . ذلك أن نوع الإنسان محتاج إلى اجتماع الأفراد على هيئة تعاون ، لإقامة المعاش والاستعداد للمعاد ، فكانت صورة الاجتماع على هذه الهيئة هى الملة ، والطريق الخاص الموصل إلى هذه الهيئة هو المنهاج والسنة ، والاتفاق على تلك السنة هى الجماعة (ص ٤٤) . ولما كان الشهرستانى يقرر المذاهب على ما هى عليه على الشرط الذى وضعه لنفسه دون انحياز أو ميل ، فقد وصف الأشاعرة – ولا ننسى أنه أشعرى – بأنهم أهل السنة والجماعة ، (ص ٨٥) . يريد بذلك القول إن معظم المسلمين اتفقوا على ذلك المنهاج وتلك السنة الموصلين إلى الملة ، بحسب التعريف المصطلح عليه .

وملة إبراهيم ، وهى الحنيفية ، هى الملة الكبرى (ص ٤٤) .

وقد اختلف العلماء بشأن الحنيفية والحنفاء اختلافاً عظيما ، ولا يوجد بين أيدينا فى الوقت الحاضر شئ ثابت عنهم سوى ما جاء فى القرآن فى آيات متفرقة ، يستفاد منها على الجملة أن الحنيفية هى الدين الحق ، الخالص ، الفطرى ، وأنه يقابل الشرك من جهة ، والنصرانية واليهودية من جهة أخرى. أما تاريخها قبل نزول القرآن ، فلا سبيل إلى تحقيقه لعدم وجود مصادر موثوق بها يمكن الاعتماد عليها . وقد ذهب بعض قدماء المؤرخين كالمسعودى إلى أن الحنفاء هم الصائبة ، ولكن الشهرستانى يقرر خلاف ذلك تماماً ، لأنه يقابل بينهما ، فالفرق فى زمان إبراهيم الخليل عليه السلام ترجع إلى صنفين ، أحدهما الصابئة ، والثانى الحنفاء (ص ٢١٠) . وكان ملوك الفرس على ملة إبراهيم ، غير أن الفرس اصطنعوا المجوسية فحرفوا الدعوة الخليلية .

وخلاصة مذهب الصابئة – عبدة الكواكب – أنهم يقولون بالحاجة إلى « متوسط » لمعرفة الله ، وهذا المتوسط روحانى لا جسمانى ، إما كوكب أو ملك . ويقول الحنفاء بوجود « متوسط » من جنس البشر على درجة من الطهارة والعصمة والتأييد والحكمة فوق الروحانيات ، فهو يماثل البشر من حيث البشرية ، ويمتاز عنهم بالروحانية التى بها يتلقى الوحى .

وقد أورد الشهرستانى مناظرة طريفة بين إبراهيم الخليل وأصحاب الهياكل (ج ٢ ص ٥٤ – ٥٧) . تعد من أهم المصادر عن تاريخ الصابئة .

والصابئة دين يكتنفه الغموض ، اعترف به بعض وأنكره بعض آخر ، وقد أقر بهم الخليفة المأمون ، وعدهم أصحاب كتاب ، وكان منهم علماء وفلاسفة ، مثل ثابت بن قرة . ولا تزال طوائف من الصابئة موجودين حتى اليوم فى شمال العراق[1].

---

(١) يراجع الجزء الخامس من المغنى للقاضى عبد الجبار ، وهو خاص بالفرق غير الإسلامية تحقيق المرحوم الأستاذ محمود الخضرى ، صدر ١٩٦٥ ، ٢٦٣ ، وقد اعتمد فيه القاضى على كتاب الآراء والديانات للحسن بن موسى ، وغيره من قدماء المؤرخين . ولكن طريقة الشهرستانى مختلفة ، لأنه يختار ويلخص .

والشهرستانى يقسمهم فريقين : أصحاب الهياكل ، وأصحاب الأشخاص . والمحور الذى يدور عليه الصابئة هو الاعتراف بمتوسط بين الله والعباد . فاتخذوا أولا الهياكل ، وهى السيارات السبع ، لتقربهم إلى الله رب الأرباب ، ومن هنا سموا عبدة الكواكب. ثم انحدر هذا الدين ، واصطنع أتباعه الأصنام — وهى الأشخاص — لتكون أقرب إليهم وتمثل فى الوقت نفسه الهياكل ، وعبدوا هذه الأصنام لتقربهم إلى الله زلفى وهذا لعمرى تفسير يسترعى الاعتبار يقدمه الشهرستانى لعبادة الأوثان فى الجاهلية ، هذه العبادة التى جعلها تقابل الحنيفية تقابل التضاد .

— ٥ —

ليس معنى ذلك أن الدين لم يبدأ إلا من إبراهيم الخليل ، لأن الدين السماوى وجد منذ آدم ، وظل مستمراً حتى محمد خاتم النبيين .

غير أن الحدود والأحكام ابتدأت من آدم ، وشيث ، وإدريس .

والشريعة ابتدأت من نوح ، لما جاء فى القرآن : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا » .

وختمت الشرائع والملل ، والمناهج والسنن ، بمحمد عليه السلام .

ثم يروى الشهرستانى بعد ذلك قولا آخر ، وهو أن آدم خص بالأسماء ، وخص نوح بمعانى تلك الأسماء وخص ابراهيم بالجمع بينهما . ثم خص موسى بالتنزيل وعيسى بالتأويل ، والمصطفى بالجمع بينهما . (ص ٤٥)

فالدين متسلسل من لدن آدم حتى محمد ، بمقتضى النبوة التى تتصل بالله وتتلقى عنه الوحى وتنهض بالرسالة . وقد انشعب النور الوارد من آدم إلى إبراهيم ثم الصادر عنه إلى شعبتين إحداهما فى بنى إسرائيل ، والأخرى فى بنى إسماعيل .

وكان النور المنحدر من إبراهيم إلى بنى إسرائيل ظاهراً ، والنور المنحدر منه إلى بنى إسماعيل مخفياً . وكان يستدل على النور الظاهر بظهور الأشخاص ، وإظهار النبوة فى شخص شخص ، وهم أنبياء بنى إسرائيل . ويستدل على النور المخفى بابانة المناسك والعلامات .

وقبلة الفرقة الأولى بيت المقدس ، وقبلة الثانية بيت الله الحرام الذى وضع للناس بمكة مباركاً وهدى للعـــالمين .

وشريعة الأولى ظواهر الأحكام ، وشريعة الثانية رعاية المشاعر الحرام .

وقد التقت الفرقتان فى جزيرة العرب ، فاليهود والنصارى « أهل الكتاب » ، وكانوا بالمدينة ، وكانوا يذهبون مذهب بنى إسرائيل .

ويقابلهم « الأميون » ،الذين ينصرون دين القبائل، ويذهبون مذهب بنى إسماعيل ، ويعيشون بمكة .

وينص الشهرستانى على أن : « الأمى من لا يعرف الكتابة » (ص ١٨٩) . ونحن نعرف أن محمداً وصف فى القرآن بأنه النبى الأمى . وسائر المفسرين من القدماء ، ومنهم الشهرستانى ، يقررون أن محمداً لم يكن يعرف القراءة ، غير أن كثيراً من المستشرقين يذهبون إلى أن محمداً كان يعرف الكتابة ، وأن معنى الأمى هو الوثنى ، وكل ذلك ليثبتوا أن محمداً أخذ القرآن مما اطلع عليه عند اليهود بخاصة ، وهذه فرية لا تتفق مع المدلول التاريخى لمعانى الألفاظ الواردة فى لغة العرب . وتفسير الشهرستانى معقول ومتفق مع وقائع التاريخ ، ومقبول بالذوق السليم . فقد كان هناك أهل كتاب هم اليهود والنصارى ، وكان هناك أميون هم العرب فى مكة . وقد أرسل محمد إلى الفريقين ، بل إلى الناس كافة . وفى القرآن جدل عنيف للكفار والمشركين والدهريين ، ممن يعبدون الأصنام ، ولا يؤمنون بالبعث فى اليوم الآخر ، وفيه أيضاً جدل عنيف لليهود والنصارى الذين « حرفوا » الكتاب .

واليهود هم أمة موسى ، كتابهم التوراة ، أول كتاب أنزل من السماء ، أما ما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء فيسمى « الصحف » ، كما أنزل الله على موسى « الألواح » .

وأصول اليهودية أربعة : الأول عدم جواز النسخ إذ عندهم أن الشريعة واحدة ابتدأت بموسى وتمت به . والثانى التشبيه ونفيه ، لأن التوراة ملئت بالمتشابهات مثل الصورة والمشافهة ، والتكليم جهراً ، والنزول على طورسينا انتقالا ، والاستواء على العرش استقراراً ، وجواز الرؤية فوقاً . والثالث القول بالقدر والجبر ، فالربانيون منهم كالمعتزلة عند المسلمين قدرية ، والقراءون كالمجبرة والمشبهة . والرابع جواز الرجعة أو استحالتها ، فالذين يجيزون الرجعة يقولون إن « عزير » أماته الله مائة عام ثم بعثه ، وإن « هارون » سيرجع بعد موته .

وكان الشهرستانى مطلعاً على مذاهب النصارى وأناجيلهم ، قرأها واستقى منها كلامه الذى نقل بعضه عن ترجمات قديمة . قال : « ورأيت رسالة فولوس التى كتبها إلى اليونانيين : إنكم تظنون أن مكان عيسى عليه السلام كمكان سائر الأنبياء ؛ وليس كذلك ، بل إنما مثله مثل ملكيزداق ، وهو ملك السلام الذى كان إبراهيم عليه السلام يعطى إليه العشور » . والأناجيل أربعة : متى ، ولوقا ، ومرقص ، ويوحنا . وخاتمة إنجيل متى أنه قال : « إنى أرسلكم إلى الأمم كما أرسلنى أبى إليكم ، فاذهبوا ، وادعوا الأمم باسم الاب والابن والروح القدس » . وفاتحة إنجيل يوحنا : « على القديم الأزلى قد كانت الكلمة ، وهوذا الكلمة كانت عند الله ، والله هو كان الكلمة ، وكل كان بيده » (ص ٢٠٢)(١).

والنصارى أمة المسيح ، رسول الله ، وكلمته ، المبعوث حقاً بعد موسى ، المبشر به فى التوراة . له آيات ظاهرة ، ودلائل باهرة ، مثل إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة والأبرص . ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على صدقه : وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ، ونطقه من غير تعليم سالف ، أوحى الله إليه إنطاقاً فى المهد ، وأوحى إليه إبلاغاً عند الثلاثين ، وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام .

فلما رفع إلى السماء اختلفوا فيه ، وترجع اختلافاتهم إلى أمرين ، أحدهما كيفية نزوله ، واتصاله بأمه ، وتجسد الكلمة ؛ والثانى كيفية صعوده ، واتصاله بالملائكة وتوحد الكلمة . (ص ٢٠١) . وكبار فرق المسيحية — فى زمان الشهرستانى طبعاً — الملكانية ، والنسطورية ، واليعقوبية ، وقد لخص آراء كل فرقة .

— ٦ —

ولو كان الشهرستانى يتبع فى كتابه المنهج التاريخى التطورى ، لكان ينبغى أن يبدأ بالحنيفية ملة إبراهيم ، ثم باليهودية ، والنصرانية ، ويتبع ذلك بالإسلام ، ولكنه عنى بالإسلام أكثر من غيره الملل ، فابتدأ به ، وتوسع فى الكلام على فرقه التى لم يراع تطورها التاريخى ، بل ترتيب الموضوعات الكلامية وهى التوحيد والصفات ، والوعد والوعيد ، والإرجاء ، والإمامة . ولذلك بدأ بالمعتزلة ، ثم الجبرية ، والصفاتية ، والخوارج ، والمرجئة ، والشيعة ، وأخيراً أهل الفروع من المجتهدين .

ومعظم مؤرخى الفرق يبدءون بالخوارج ، لأنهم أول فرقة ظهرت فى الإسلام .

على أن الشهرستانى إذ يأخذ نفسه بهذا النظر الموضوعى لم يلتزم به ، بل كثيراً ما كان يرجع إلى

(١) هناك بعض الاختلاف فى الترجمة الحديثة المتداولة اليوم ، مثال ذلك أن فاتحة إنجيل يوحنا تقول : « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . هذا كان فى البدء عند الله ، كل شئ به كان وبغيره لم يكن شئ مما كان » .

تتبع التاريخ لوضع المسألةالتى يبحثها فى إطارها التاريخى الذى لا تفهم بدونه .

ومن مزايا المنهج الموضوعى إبراز الآراء ، ومعرفة المهم منها وغير المهم ، وتقديم بعضها على بعض ، وتبين أثرها فى توجيه الأحداث ؛ ومن مساوئه عدم الدقة كلما أوغل الباحث فى التعميم ووضع قانون يشتمل على جميع الوقائع الجزئية . ومن مزايا المنهج التاريخى العناية بالأشخاص وتتبع الجزئيات ، فهو أكثر حياة وألصق بالواقع . ولكن الموضوعى أعلى ، وأسمى ، وأصعب ، وأكثر جرأة . ولهذا يجب أن يؤخذ رأى الشهرستانى مع احترامنا له بشئ من الحذر .

فالمعتزلة فى نظره يعمهم أمور أربعة هى القول بأن الله قديم مع نفى الصفات عنه تعالى ، وهم متفقون على نفى الرؤية والتشبيه ، وهذا هو التوحيد . والثانى القول بالعدل الإلهى ، يريدون حرية الإنسان فى أفعاله بحيث يستحق الثواب والعقاب . ولذلك سمى المعتزلة أهل العدل والتوحيد . والثالث صحة الوعد والوعيد ووجوب تخليد الكافر وأصحاب الكبائر فى النار . والرابع أن الحسن والقبيح يعرفان بالعقل ، وعلى الجملة يقدمون العقل على السمع . ونحن نرى أن هذا التعميم خطير ، لأن رجال المعتزلة عدد كبير ، ولكل واحد منهم آراء ينفرد بها .

يبدأ الشهرستانى فيطبق منهجه الموضوعى على « الواصلية » أصحاب واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، ويرى أن اعتزالهم يدور على أربع قواعد ، الأولى نفى صفات البارى من العلم والحياة والقدرة والإرادة . والثانية القول بالقدر بمعنى أن العبد هو فاعل الخير والشر ، والإيمان والكفر ، وهو المجازى على فعله . والثالثة المنزلة بين المنزلتين ، أى أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً ولا كافراً . والرابعة أن أصحاب الجمل وصفين من الفريقين فأحدهما مخطئ فاسق لا محالة .

ولو أنه كان يطبق المنهج التاريخى لبدأ باعتزال واصل بن عطاء حلقة الحسن البصرى ، وقوله بالمنزلة بين المنزلتين . ولكنه يبدأ بقاعدة نفى الصفات ، ويقرر أنها أصل الاعتزال ، وأن المعتزلة أخذوا هذه المقالة بعد « مطالعة كتب الفلاسفة » (ص ٥١) . وهذا تفسير جرئ خطير ، يحتاج إلى سند من التاريخ ، لأن واصل ظهر فى زمان عبد الملك بن مروان من خلفاء بنى أمية ، ولم تكن « كتب الفلاسفة » قد ألفت بعد ، فضلا عن أنها كانت قد ترجمت ، بل إن التأليف نفسه فى هذه الفنون الجديدة لم يكن معروفاً . ويبدو أن المقصود هم المتأخرون من رجال المعتزلة لا واصل نفسه .

تحدث الشهرستانى بايجاز عن سلسلة من رجال الاعتزال ، مبتدئاً بواصل ، ثم بالعلاف والنظام إلى أن يصل إلى الجُبَّائِيَيْن أبى على وأبى هاشم ، وقد أشار فى آخر مقالته عن المعتزلة إشارة عابرة إلى القاضى عبد الجبار ، قائلا إنه من متأخرى المعتزلة انتهج طريقة أبى هاشم . ويبدو أنه كان لا يميل إلى آراء القاضى ، فعارضه بأبى الحسين البصرى ، الذى خالفه « وتصفح أدلة الشيوخ ، واعترض على ذلك بالتزييف والإبطال ، وانفرد عنهم بمسائل . . الخ » (ص ٧٨) .

وقف الشهرستانى طويلا إلى حد ما عند النظام ، الذى طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة » (ص ٥٦) ، وذكر له ثلاث عشرة مسألة انفرد بها عن المعتزلة السابقين ، من أهمها أن الله خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هى عليه الآن ، وقد أخذ هذه المقالة عن الفلاسفة ، وكان أكثر ميله إلى تقرير مذاهب الطبيعيين منهم دون الإلهيين . ومن أخطرها أيضاً قوله فى إعجاز القرآن « بالصرفة » أى أن الله صرف العرب عن الإتيان بمثله ، ولو « خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله ، بلاغة وفصاحة ، ونظماً » . وكذلك وقف عند الجاحظ ،

الذى طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخلط وروج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة . وللشهرستانى أوصاف لرجال الاعتزال طريفة موجزة ، فثمامة بن أشرس : « كان جامعاً بين سخافة الدين وخلاعة النفس ، مع اعتقاده بأن الفاسق يخلد فى النار إذا مات على فسقه من غير توبة » . وبشر بن المعتمر «كان من أفضل علماء المعتزلة ، وهو الذى أحدث القول بالتولد ، وأفرط فيه » . وأبو الهذيل العلاف : « شيخ المعتزلة ، ومقدم الطائفة ، ومقرر الطريقة ، والمناظر عليها » .

فلما انتقل إلى الكلام عن الجبرية ، بدأ بتعريف « الجبر » ، وهو : « نفى الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى » . ثم تكلم عن فرق ثلاث منهم هى الجهمية أصحاب جهم بن صفوان ، والنجارية أصحاب الحسين بن محمد النجار ، والضرارية أصحاب ضرار بن عمرو ، وحفص الفرد .

ويحدثنا الشهرستانى عن « الصفاتية » الذين يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة وغير ذلك ، وعد منهم الأشاعرة أصحاب أبى الحسن على ابن إسماعيل الأشعرى وكيف تطور مذهبه على يد الباقلانى مرة ، ثم على يد إمام الحرمين الجوينى مرة أخرى . ثم عد من الصفاتية المشبهة ، والكرامية .

وعلى عادته من البدء بالتعريف يتحدث فى الباب الرابع عن الخوارج ، فيقول فى تعريفهم : « كل من خرج على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجياً ، سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين باحسان ، والأئمة فى كل زمان » .

الباب الخامس عن المرجئة ، والإرجاء على معنيين ، أحدهما بمعنى التأخير ، والثانى إعطاء الرجاء ، والمعنى الأول يصح عليهم لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد ، وكذلك المعنى الثانى ينطبق عليهم لأنهم كانوا يقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وقيل : إن الإرجاء تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة .

الباب السادس عن الشيعة ، وتعريفهم العام أنهم الذين شايعوا علياً على الخصوص وقالوا بامامته وخلافته نصاً ووصية ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده . والإمامة عندهم قضية أصولية . فهى ركن الدين . والأصول التى يجتمع سائر فرق الشيعة على القول بها ثلاثة ، التعيين والتنصيص ، وعصمة الأنبياء والأئمة ، والقول بالتولى والتبرى قولا وفعلا وعقداً ، إلا فى حال التقية .

ولم يخرج الشهرستانى على الشرط الذى أخذه على نفسه من حكاية الآراء على ما هى عليه دون تسفيه لها إلا عند كلامه عن « الكيالية » ، أتباع أحمد بن الكيال كان من دعاة أحد أهل البيت بعد جعفر الصادق ، ثم صرف الدعوة إلى نفسه وادعى أنه « الإمام » وأنه « القائم » . وقد زعم أن « أحمد » — أى اسم صاحب الدعوة — فى مقابلة العالم العلوى والعالم السفلى . فالألف تدل على الإنسان ، والحاء الحيوان ، والميم الطائر ، والدال الحوت ، إلى أن قال الشهرستانى : « والمقابلة كما سمعتها من أخس المقالات ، وأوهى المقابلات ، بحيث لا يستجيز عاقل أن يسمعها ، فكيف يرضى أن يعتقدها . وأعجب من هذا كله تأويلاته الفاسدة . . . . الخ » (ص ١٦٣) .

كان الشهرستانى منغمساً فى معترك الآراء الدينية ، يجادل أصحابها ، ويسمع منهم ، إلى جانب ما كان يطلع عليه فى الكتب . جادل الإسماعيلية التعليمية ، فقال « وكم قد ناظرت القوم على المقدمات المذكورة ، فلم يتخطوا عن قولهم أفنحتاج إليك ؟ أو نسمع هذا منك ، أو نتعلم عنك ؟

وما أورده عن الفلسفة اليونانية على الرغم من اطلاعه على مذاهبها فيه خلط كثير ، وحكايته عن الفلاسفة السابقين على سقراط ، مثل طاليس وأنكسمانس وانكساجوراس وفيثاغورس وانبادقليس محرفة ، وتختلط بآراء المتأخرين . ولنا أن نعذر الشهرستانى فى ذلك ، لأنه كان ينقل عن الكتب المترجمة فى عصر الترجمة لفلاسفة اليونانيين ، أو عن أوائل الفلاسفة الإسلاميين مثل الكندى والفارابى ، وابن سينا ، ومعظم نقله عن ابن سينا ، ولكننا بعد نشر عدة مؤلفات للكندى نستطيع أن نقرر أنه نقل كذلك عنه . فهو يروى أن طاليس قال : « والإبداع هو تأييس ما ليس بأيسى ، وإذا كان هو — يريد الله — مؤيس الأيسيات ، فمؤيس الأشياء لا يحتاج إلى أن يكون عنده صورة الأيس بالأيسية . . . الخ » (ج ٢ ص ٦٦) . وتكاد تكون هذه العبارات منقولة بنصها عن الكندى من كتابه فى الفلسفة الأولى ، وفيلسوف العرب كما نعلم هو صاحب نظرية الإبداع ، والتأييس أى الإيجاد ، لأن الأيس هو الوجود . وطاليس لم يقل بشئ من ذلك أصلا . وكلامه عن فيثاغورس ورأيه فى العدد لا ينطبق على فيثاغورس ، بل على المتأخرين من رياضيى الإسكندرية ، وبين أيدينا الآن كتاب المدخل إلى علم العدد من تأليف نيقوماخوس الإسكندرى نقل فى عصر الترجمة ، ويتضح من الموازنة بين ما ذكره الشهرستانى ، بل ما ذكره إخوان الصفا من قبل فى أول رسائلهم ، أنهم قد نقلوا عن نيقوماخوس هـــذا .

ومن أمثلة الخلط فى الآراء ، ما يذكره عن أفلاطون من أنه قال إن للعالم محدثاً مبدعاً أزلياً . . . « فأبدع العقل الأول ، وبتوسطه النفس الكلية ، وقد انبعثت عن العقل انبعاث الصورة فى المرآة ، وبتوسطهما العنصر» (ج ٢ ص ٩٥) . وهذا كما نعرف مذهب أفلوطين لا أفلاطون . وهو أيضاً يخلط بين آراء أفلاطون وأرسطو ، فيذكر عن أفلاطون أنه « حد الطبيعة بأنها مبدأ الحركة والسكون فى الأشياء » .

الخلاصة أنه كان يمكن الاعتماد على مقـــالة الشهرستانى عن فلاسفة اليونانيين منذ مطلع هذا القرن وأواخر القرن التاسع عشر ، واعتبارها من المصادر الهامة عنهم ، أما اليوم بعد نشر كثير من المخطوطات التى كانت مفقودة أو مجهولة ، فلم تصبح لهذه المقالة ما كان لها من قيمة . وشبيه بذلك ما ذكره عن المعتزلة فقد كان كما وصفه كاتب المقالة عنه فى دائرة المعارف الإسلامية من أهم المصادر عن المعتزلة ، أما الآن بعد الكشف عن كتاب المغنى للقاضى عبد الجبار ، والذى يقع فى عشرين جزءاً ويعد موسوعة كبرى فى الاعتزال فلم يعد كلام الشهرستانى هو الحجة فى هذا الموضوع ، من جهة أنه مصدر لآرائهم .

وليس مايذكره عن آراء اليونانيين مقصودة لذاتها ، لأنه لا يؤرخ للفلسفة بمقدار ما يؤرخ للدين . ولهذا السبب وضع مذاهبهم فى إطار من الفلسفة الإلهية ، فقال عنهم إن كلامهم فى الفلسفة « إنما يدور على ذكر وحدانية البارى تعالى ، وإحاطته علماً بالكائنات كيف هى ؟ وفى الإبداع وتكوين العالم ؛ وأن المبادئ الأول ما هى وكيف هى ؛ وأن المعاد ما هو ومتى هو » . (ج ٢ ص ٦٥) . ومن الواضح أن هذا الإطار إسلامى لأنه يبدأ بالوحدانية ، وبالعلم الإلهى ، وإبداع العالم وخلقه ، ثم معاد الأنفس ، أى البعث فى الآخرة . وروح الفلسفة اليونانية بعيدة تماماً عن « الإبداع والخلق » ، إذ العالم عندهم قديم ، وهذا صريح عند أرسطو ومن أجل ذلك كفر الإسلاميون المعلم الأول ، بل إن أفلاطون نفسه لم يقل صراحة بالخلق ، بل العالم عنده قديم ، نظمه الله .

فلما انتقل الشهرستانى من فلاسفة اليونان إلى الفلاسفة الإسلاميين ، عدد أسماء البارزين منهم كالكندى ، ويحيي النحوى ، والمقدسى ، والبلخى ، وابن مسكويه ، والفارابى ، وغيرهم ، إلا أنه وقف عند ابن سينا ، لأنه علامة القوم ، وطريقته أدق عند الجماعة ونظره فى الحقائق أغوص ، ولذلك اختار نقل طريقته من كتبه ، ملخصاً إياها ، ومبتدئاً بالمنطق ، ثم بالعلم الإلهى — أى الميتافيزيقا — ثم بالطبيعيات . ونحسب أن الترتيب الأصح هو أن يثنى بالطبيعيات وأن يختم بما بعد الطبيعة ، أى العلم الإلهى .

— ٨ —

فاذا كان الشهرستانى لم يوفق فى حكاية مذاهب الفلاسفة اليونانيين وتلخيص آرائهم ، فانما ذلك يرجع إلى جهله باللغة الإغريقية وعدم اطلاعه على كتب القوم فى أصولها ، وإلى اعتماده على ما ترجم من مؤلفاتهم وكان معظمه مشوشاً وبخاصة بسبب نقل تاسوعات أفلوطين ونسبتها إلى أرسطو .

ولكنه أجاد فى تلخيص آراء المجوس ، والصابئة ، والمتكلمين ، كما أجاد فى تلخيص آراء العرب فى الجاهلية ، وآراء الهند ، وبهما يختم الكتاب .

وتلخيصه لآراء العرب فى الجاهلية موفق ، وقد اعتمد عليه المرحوم مصطفى عبد الرازق فى كتابه « الدين والوحى والإسلام » . ذلك أنه يقسم العرب أصنافاً ثلاثة ، الأول الذين أنكروا الخالق ، والبعث ، والإعادة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفنى ، وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا . وهؤلاء هم الدهرية .

والصنف الثانى الذين أقروا بالخالق وابتداء الخلق ، وأنكروا البعث والإعادة . وهم الذين أخبر عنهم القرآن . « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم » .

والصنف الثالث الذين أنكروا الرسل ، وعبدوا الأصنام ، وأقروا بالخالق والبعث .

وقد عاد الشهرستانى فكرر نظرية « النور » الإلهى الوارد من صلب إبراهيم إلى إسماعيل ، وتواصله فى ذريته إلى أن ظهر بعض الظهور فى أسارير «عبدالمطلب» وببركة ذلك النور دفع الله تعالى شر أبرهة ، ورأى عبد المطلب تلك الرؤيا فى تعريف موضع زمزم ، وببركته كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى .

وقد فطن الشهرستانى إلى أن الإسلام ليس بدءاً جديداً لعقيدة وأخلاق وعادات ، وقد أومأنا إلى دين الحنيفية الذى يعد الإسلام استمراراً وإحياء له . كذلك كانت العرب فى الجاهلية تحرم أموراً نزل القرآن بتحريمها . كانوا لا ينكحون الأمهات ، ولا البنات ، ولا الخالات ، ولا العمات . وهذا ما نقله عن محمد بن السائب الكلبى ، فلا حاجة إلى إعادته ، من وصف للزواج والطلاق ، والحج ، والأشهر الحرام ، وغير ذلك .

— ٩ —

خاتمة الكتاب فى آراء الهند . وهى مقالة موجزة تقع فى زهاء عشرين صفحة ، تحدث فيها عن البراهمة وأصنافهم وهم أصحاب البددة ، وأصحاب الفكرة والوهم ، وأصحاب التناسخ ، وعن أصحاب الروحانيات الذين يعتقدون فى متوسطات روحانية يأتونهم بالرسالة من عند الله فى صورة البشر من غير كتاب ، يأمرهم وينهاهم . وعن عبدة الشمس وعبدة القمر ، وعن عبدة الأصنام ، وعباد الماء ، وعباد النار ، وحكماء الهند .

وقد خطأ الشهرستانى من نسب البراهمة إلى إبراهيم ، إذ أهل الهند ينفون النبوات أصلا ورأساً ، فكيف يقولون بابراهيم نبياً . وإنما البراهمة نسبة إلى رجل منهم يقال له « براهم » . والبددة هم الذين ينتسبون إلى « البد » — أى بوذا — ومعنى « البد » عندهم شخص فى

هذا العالم ، لا يولد ، ولا ينكح ، ولا يطعم ، ولا يشرب ، ولا يهرم ، ولا يموت . وأول « بد » ظهر فى العالم اسمه « شامكين » ، وتفسيره السيد الشريف . ومن وقت ظهوره إلى وقت الهجرة خمسة آلاف سنة » (ج ٢ ص ٢٦٠ (. وبوذا يسمى شاكمين حقاً ، ويرسم بالحروف اللاتينية Sa k ya muni ، ولكن ليس السيد الشريف ، لأن شاكيا اسم القبيلة التى ينتسب إليها بوذا ، ومعناها بالسنسكريتية العارف ، أما اسمه الأصلى فهو الأمير جواتما ، عاش فى القرن السادس قبل الميلاد . فليس بينه وبين بداية التاريخ الهجرى خمسة آلاف سنة ، بل ألف ومائتا سنة .

وقد ذكر من فرقهم الجلهكية ، وهم عباد الماء ، ونحن نعلم أن فى الهند اليوم طائفة كبيرة يقدسون الماء . وأصحاب تلك الفرقة « يزعمون أن الماء ملك ومعه ملائكة ، وأنه أصل كل شئ ، وبه كل ولادة ونمو ونشوء وبقاء وطهارة وعمارة . . . وما من عمل فى الدنيا إلا وهو محتاج إلى الماء . وإذا أراد الرجل عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل الماء إلى وسطه ، فيقيم ساعة أو ساعتين أو أكثر ، ويأخذ ما أمكنه من الرياحين فيقطعها صغارا ، ويلقى فيه بعضها بعد بعض ، وهو يسبح ويقرأ . وإذا أراد الانصراف حرك الماء بيده ، ثم أخذ منه فنقط به رأسه ووجهه وسائر جسده ، ثم سجد وانصرف » .

— ١٠ —

فهذا كتاب الملل والنحل ، كان يمثل عقائد وآراء الناس فى العالم المعروف زمان الشهرستانى ، استمد ما دونه فيه من الكتب التى اطلع عليها ، أو مما شاهده بنفسه . ولا نزاع أن « الملل والنحل » سد فراغاً فى الثقافة الإسلامية فى القرن السادس الهجرى ، إذ استطاع المسلم الذى كان يعيش فى ظل الدول الإسلامية أن يأخذ فكرة عن الدين المقارن ، وأن يعلم أن الله لم يخلق البشر على مذهب واحد ، بل جعلهم مختلفين فى اللغات واللهجات والعادات والمعتقدات ، والملل والنحل . وأنهم على الرغم من هذا الاختلاف نوع واحد هو الإنسان .

ولما كانت طبيعة الإنسان التغير والتطور ، فلا جرم أن الأديان قد تطورت مظاهرها ، وجاءت فرق جديدة فى كل دين ، وأن الإسلام نفسه قد تطور مظهره ، ونبغت فيه فرق جديدة ، على مر الزمن منذ القرن السادس الهجرى إلى الرابع عشر . وقد شهد القرن الماضى ثورة فى التفكير الدينى الإسلامى وظهر جماعة من المصلحين من مثل محمد بن عبد الوهاب فى جزيرة العرب ، وجمال الدين ومحمد عبده فى مصر ، والسنوسى فى شمال إفريقية ؛ ولا تزال حركة التجديد ماضية فى طريقها حتى اليوم .

والأمر كذلك فى المسيحية التى شهدت من التطور والتجديد ألواناً وأصنافاً على رأسها البروتستانتية ، وفرقها تعد بالعشرات ، بل بالمئات . أما الفلسفة الإلهية ، والحركة العلمية وما صحبها من نزعة إلحادية ثم عودة إلى الإيمان ، فكل ذلك هو حديث الساعة ، مما يجدر معه أن ينهض كاتب يؤلف كتاباً جديداً فى « الملل والنحل » يصور الآراء والمعتقدات فى الوقت الحاضر .

مقتطفات

١ — الجاحظية :

أصحاب عمرو بن بحر أبى عثمان الجاحظ ؛ كان من فضلاء المعتزلة ، والمصنفين لهم . وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخلط وروج كثيراً من مقالاتهم بعباراته البليغة وحسن براعته اللطيفة . وكان فى أيام المعتصم والمتوكل ، وانفرد عن أصحابه بمسائل ، منها قوله : إن المعارف كلها ضرورية طباع ، وليس شئ

من ذلك من أفعال العباد . وليس للعبد كسب سوى الإرادة ، وتحصل أفعاله منه طباعاً ، كما قال ثمامة . ونقل عنه : أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الأعراض ، فقال : إذا انتفى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق . وأما الإرادة المتعلقة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه ، وزاد على ذلك باثبات الطبائع للأجسام كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالا مخصوصة بها . وقال باستحالة عدم الجواهر ؛ فالأعراض تتبدل، والجواهر لا يجوز أن تفنى . (جـ ١ ص ٧٢)

٢ — البهشمية :

وزعم أبو هاشم أن التفضل لا يقع به انتصاف ، لأن التفضل ليس يجب عليه فعله . وقال الجبائى وابنه لا يجب على الله شئ لعباده فى الدنيا إذا لم يكلفهم عقلا وشرعاً . فأما إذا كلفهم ، فعل الواجب فى عقولهم ، واجتناب القبائح ، وخلق فيهم الشهوة للقبيح والنفور من الحسن ، وركب فيهم الأخلاق الذميمة ، فانه يجب عليه عند هذا التكليف إكمال العقل ونصب الأدلة ، والقدرة ، والاستطاعة ، وتهيئة الآلة ، بحيث يكون مزيحاً لعللهم فيما أمرهم . ويجب عليه أن يفعل بهم أدعى الأمور إلى فعل ما كلفهم به ، وأزجر الأشياء لهم عن فعل القبيح الذى نهاهم عنه . ولهم فى مسائل هذا خبط طويل . (جـ ١ ص ٧٨)

٣ — الجهميـــة :

أصحاب جهم بن صفوان ، وهو من الجبرية الخالصة ، ظهرت بدعته بترمذ ، وقتله سالم بن أحوز المازنى بمرو ، فى آخر ملك بنى أمية . وافق المعتزلة فى نفى الصفات الأزلية ، وزاد عليهم بأشياء منها قوله : لا يجوز أن يوصف البارى تعالى بصفة يوصف بها خلقه ، لأن ذلك تقتضى تشبيهاً ؛ فنفى كونه حياً ، عالماً ؛ وأثبت كونه قادراً ، فاعلا ، خالقاً ؛ لأنه لا يوصف شئ من خلقه بالقدرة والفعل والخلق . . . ومنها قوله فى القدرة الحادثة إن الإنسان لا يقدر على شئ ، ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور فى أفعاله ، لا قدرة له ، ولا إرادة ، ولا اختيار . وإنما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق فى سائر الجمادات . وتنسب إليه الأفعال مجازاً ، كما تنسب إلى الجمادات ؛ كما يقال : أثمرت الشجرة ، وجرى الماء ، وتحرك الحجر ، وطلعت الشمس وغربت ، وتغيمت السماء وأمطرت ، واهتزت الأرض وأنبتت . . . إلى غير ذلك . والثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال كلها جبر . قال : وإذا ثبت الجبر ، فالتكليف أيضاً كان جبراً . (جـ ١ ص ٨٠)

٤ — الصفاتية :

اعلم أن جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة ، والسمع والبصر والكلام ، والجلال والإكرام ، والجود والإنعام ، والعزة والعظمة ؛ ولا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً وكذلك يثبتون صفات خبرية ، مثل اليدين والوجه ، ولا يؤولون ذلك ، إلا أنهم يقولون : هذه الصفات قد وردت فى الشرع فنسميها صفات خبرية. ولما كانت المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون ، سمى السلف صفاتية ، والمعتزلة معطلة . فبالغ بعض السلف فى إثبات الصفات إلى حد التشبيه بصفات المحدثات ، واقتصر بعضهم على صفات دلت الأفعال عليها .وما ورد به الخبر فافترقوا فيه فرقتين ، فمنهم من أوله على وجه يحتمل اللفظ ذلك ، ومنهم من توقف فى التأويل وقال : عرفنا بمقتضى العقل أن الله تعالى ليس كمثله شئ ، فلا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبهه شئ منها ، وقطعنا بذلك ، إلا أنا لا نعرف معنى اللفظ الوارد فيه ، مثل

قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى ؛ ومثل قوله خلقت بيدى ؛ ومثل قوله : وجاء ربك ، إلى غير ذلك . ولسنا مكلفين بمعرفة تفسير هذه الآيات وتأويلها ، بل التكليف قد ورد بالاعتقاد بأنه : لا شريك له ، وليس كمثله شئ . وذلك قد أثبتناه يقيناً .

ثم إن جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف ، فقالوا : لا بد من إجرائها على ظاهرها ، والقول بتفسيرها كما وردت من غير تعرض للتأويل ولا توقف فى الظاهر ، فوقعوا فى التشبيه الصرف ، وذلك على اختلاف ما اعتقده السلف . ولقد كان التشبيه صرفاً خالصاً فى اليهود ، لا فى كلهم ، بل فى القرائين منهم : إذ وجدوا فى التوراة ألفاظاً كثيرة تدل على ذلك . ثم الشيعة فى هذه الشريعة وقعوا فى غلو وتقصير ، أما الغلو فتشبيه بعض أئمتهم بالإله تعالى وتقدس . وأما التقصير فتشبيه الإله بواحد من الخلق . ولما ظهرت المعتزلة والمتكلمون من السلف ، رجعت بعض الروافض عن الغلو والتقصير ، ووقعت فى الاعتزال . وتخطت جماعة من السلف إلى التفسير الظاهر ، فوقعت فى التشبيه . (ج ١ ص ٨٥)

٥ ــ الزيدية :

أتباع زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم . ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمة رضى الله عنها ، ولم يجوزوا ثبوت الإمامة فى غيرهم ، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج بالإمامة أن يكون إماماً واجب الطاعة ، سواء أكان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين . . .

وزيد بن على لما كان مذهبه هذا المذهب أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم ؛ فتلمذ فى الأصول لواصل بن عطاء الغزال الألثغ رأس المعتزلة ورئيسهم ، مع اعتقاد واصل أن جده على بن أبى طالب فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام ما كان على يقين من الصواب ، وأن أحد الفريقين كان على الخطأ لا بعينه . فاقتبس منه الاعتزال ، وصارت أصحابه كلهم معتزلة . وكان من مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، فقال : كان على بن أبى طالب أفضل الصحابة ، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة . فان عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على من دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى . فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد ، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة ، والتقدم بالسن ، والسبق فى الإسلام ، والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه ، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه ؛ فسميت رافضة . (ج ١ ص ١٣٩)

٦ ــ السبــائية :

أصحاب عبدالله بن سبأ ، الذى قال لعلى كرم الله وجهه : أنت أنت ، يعنى أنت الإله ، فنفاه إلى المدائن زعموا أنه كان يهودياً فأسلم . وكان فى اليهودية يقول فى يوشع بن نون وصى موسى عليهما السلام مثل ما قال فى على رضى الله عنه . وهو أول من أظهر القول بالنص بامامة على ، ومنه انشعبت أصناف الغلاة . زعم أن علياً حى لم يمت ؛ ففيه الجزء الإلهى ، ولا يجوز أن يستولى عليه ، وهو الذى يجئ فى السحاب ، والرعد صوته ، والبرق تبسمه ، وأنه سينزل إلى الأرض بعد ذلك فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . (ج ١ ص ١٥٥)

٧ ــ اليهود :

أمة موسى عليه السلام ، وكتابهم التوراة ، وهو أول كتاب نزل من السماء ؛ أعنى أنما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام ما كان يسمى كتاباً ، بل صحفاً . وقد ورد فى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تعالى خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده » فأثبت لها اختصاصاً دون سائر الكتب . وقد اشتمل ذلك على أسفار ، فيذكر مبتدأ الخلق فى السفر الأول ، ثم يذكر الأحكام والحدود ، والأحوال ، والقصص ، والمواعظ ، والأذكار فى سفر سفر . . .

ومن العجب أن فى التوراة أن الأسباط من بنى إسرائيل كانوا يراجعون القبائل من بنى إسماعيل ، ويعلمون أن فى ذلك الشعب علماً لدنياً لم تشتمل التوراة عليه . وورد فى التواريخ أن أولاد إسماعيل عليه السلام كانوا يسمون آل الله ، وأهل الله وأولاد إسرائيل : آل يعقوب ، وآل موسى ، وآل هارون . . . . (ج ١ ص ١٩٤) .

٨ ــ النصارى :

وقالوا فى « الصعود » إنه قتل وصلب ، قتله اليهود حسداً وبغياً ، وإنكاراً لنبوته ودرجته ، ولكن القتل ما ورد على الجزء اللاهوتى وإنما ورد على الجزء الناسوتى . قالوا : وكمال الشخص الإنسانى فى ثلاثة أشياء : نبوة ، وإمامة ، وملكة . وغيره من الأنبياء كانوا موصوفين بهذه الصفات الثلاث ، أو ببعضها . والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك ، لأنه الابن الوحيد ، فلا نظير له ، ولا قياس له إلى غيره من الأنبياء . وهو الذى به غفرت زلة آدم عليه السلام ، وهو الذى يحاسب الخلق .

ولهم فى « النزول » اختلاف . فمنهم من يقول : ينزل قبل يوم القيامة ، كما قال أهل الإسلام . ومنهم من يقول : لا نزول له إلا يوم الحساب . وهو بعد أن قتل وصلب ، نزل ، ورأى شخصه شمعون الصفا ، وكلمه ، وأوصى إليه ؛ ثم فارق الدنيا ، وصعد إلى السماء . فكان وصيه : شمعون الصفا ؛ وهو أفضل الحواريين علماً وزهداً وأدباً . غير أن فولوس شوش أمره ، وصير نفسه شريكاً له ، وغير أوضاع كلامه ، وخلطه بكلام الفلاسفة ووساوس خاطره . (ج ١ ص ٢٠٢)

٩ ــ الزردشتية :

أولئك هم أصحاب زردشت بن بورشب ، الذى ظهر فى زمان كشتاسب بن لهراسب الملك . وأبوه كان من أذربيجان ، وأمه من الرى واسمها دغدويه .

زعموا أن لهم أنبياء وملوكاً ، أولهم كيومرث ، وكان أول من ملك على الأرض ، وكان مقامه باصطخر . وبعده أوشهنك بن فراوك ، ونزل أرض الهند ، وكانت له دعوة ثمة . وبعده طهمورث ، وظهرت الصابئة فى أول سنة من ملكه . وبعده أخوه جم الملك . ثم بعده أنبياء وملوك ، منهم منوجهر ، ونزل بابل ، وأقام بها . وزعموا أن موسى عليه السلام ظهر فى زمانه ، حتى انتهى الملك إلى كشتاسب بن لهراسب ، وظهر فى زمانه زردشت الحكيم . . . . . . قال : النور والظلمة أصلان متضادان ، وكذلك يزدان وأهرمن ، وهما مبدأ موجودات العالم ، وحصلت التراكيب من امتزاجهما ، وحدثت الصور من التراكيب المختلفة . والبارى تعالى خالق النور والظلمة ومبدعهما ، وهو واحد ، لا شريك له ، ولا ضد ولا ند ، ولا يجوز أن ينسب إليه وجود الظلمة . (ج ١ ص ٢١٧) .

١٠ ــ أصحاب الهياكل :

اعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أن لا بد للإنسان من متوسط ، ولا بد للمتوسط من أن يرى

فيتوجه إليه ، ويتقرب به ، ويستفاد منه ، فزعوا إلى الهياكل التي هي السيارات السبع ، فتعرفوا أولا بيوتها ومنازلها ، وثانياً مطالعها ومغاربها ، وثالثاً اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها ، ورابعاً تقسيم الأيام والليالى والساعات عليها ، وخامساً تقدير الصور والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها . فعملوا الخواتيم ، وتعلموا العزائم والدعوات ، وعينوا ليوم زحل مثلا يوم السبت ، وراعوا فيه ساعته الأولى ، وتختموا بخاتمه المعمول على صورته وهيئته وصنعته ، ولبسوا اللباس الخاص به ، وتبخروا ببخوره الخاص ، ودعوا بدعواته الخاصة به ، وسألوا حاجتهم منه الحاجة التي تستدعى من زحل من أفعاله وآثاره الخاصة به ، فكان يقضى حاجتهم ، ويحصل فى الأكثر مرامهم . (ج ٢ ص ٥٢)

١١ ــ أعمال الصابئة :

والصابئون كلهم يصلون ثلاث صلوات ، ويغتسلون من الجنابة ، ومن مس الميت ؛ وحرموا أكل الجزور ، والخنزير ، والكلب ؛ ومن الطير كل ما له مخلب ، والحمام .

ونهوا عن السكر فى الشراب ، وعن الاختتان .

وأمروا بالتزويج بولى وشهود ، ولا يجوزون الطلاق إلا بحكم حاكم ، ولا يجمعون بين امرأتين (ج ٢ ص ٦٠) .

١٢ ــ حكماء الهند :

وكان برخمنين رجلا جيد الذهن ، نافذ البصيرة ، صائب الفكر ، راغباً فى معرفة العوالم العلوية ، قد أخذ من « قلانوس » الحكيم حكمته ، واستفاد منه علمه وصنعته . فلما توفى قلانوس ، ترأس برخمنين على الهند كلهم ،فرغب الناس فى تلطيف الأبدان ، وتهذيب الأنفس ، وكان يقول : « أى امرئ هذب نفسه وأسرع الخروج عن هذا العالم الدنس ، وطهر بدنه من أوساخه ، ظهر له كل شئ ، وعاين كل غائب ، وقدر على كل متعذر ، وكان محبوراً ، مسروراً ، ملتذاً ، عاشقاً ، لا يمل ولا يكل ، ولا يمسه نصب ولا لغوب . فلما نهج لهم الطريق ، واحتج عليهم بالحجج المقنعة ، اجتهدوا اجتهاداً شديداً . وكان يقول أيضاً : « إن ترك لذات هذا العالم هو الذى يلحقكم بذلك العالم حتى تتصلوا به ، وتنخرطوا فى سلكه ، وتخلدوا فى لذاته ونعيمه » . فدرس أهل الهند هذا القول ، ورسخ فى عقولهم . (ج ٢ ص ٢٧٠) .